مكان قلّ في آخر . ومتى قلّ في الدماغ قلّ فعل الحويصلات الدماغية فلم تعد تنفعل وتنفعل كما في ايقظة اما لانهُ ينقطع الاتصال بينها او لان افعالها ترتبك لتشعُّب المسالك التي تسير فيها فلا تعود تجتمع حتى يحصل من مجموعها افكار منتظمة . هذه غاية ما عُرف حتى الآن عن فلسفة النوم

هذا وقد ابنا في الكلام على التخيلات والخيالات في المجلد السابع من المقتطف ان سببها اختلال في الدم الدائر في الدماغ اما في كيتهِ او في كيفيتهِ او فيهما كليهما والغالب ان يكون سببها كثرة الدم في الدماغ ولكن قد يكون سببها قلتهُ فيهِ وذكرنا هناك امثلة كثيرة تؤيد الامرين . والرأي المشهور في تعليل التخيلات والخيالات هو انها تحدث من خلل في السريرين البصريين من كثرة الدم او قلتهِ فيهما . ومعلوم ان التخيلات والخيالات تكثر وقت النوم وتتولّد منها الاحلام وذلك دليل آخر على كثرة الدم او قلتهِ في الدماغ وقت النوم حتى يزيد عن الحد الطبيعي او يقل عنهُ

تركة السلف

كنتُ في هذه الآونة اطالع احدى الصحف العلميّة الافرنجيّة وأُعجبُ بما ارى من آراء نَضِجَتْ بطول الرويّة وحركةٍ عقليّة يجمّلها يُمن التقية وقلّة الأنانية تشير الى عراقة في العلم واصالة في حسن خدمتهِ ونجدتهِ وتناغٍ في الكمالات وتطبُّع على تناولها كابرًا عن كابر . فلم أعتمّ ان جال في خاطري والخواطر جوّالة شيءٌ من اعصرنا المتوسطة وعلماء العرب في المشرق والمغرب مصابون بمثل هذا الداء دأبهم بث الدعوة الى العلم وإحكامُ الملكات الفائقة الآفقة وهجيراهم إتيان العمل الرافع والكلم الصاعد وقُصاراهم ان يجلي الحق بلسان اي انسان فلا ترى الّا ربّان من العلم المتقحّم ومناقيهِ طيّان من الجيل المركّب ومثالبهِ . وبينا يسيح الفكر على هذا النحو والنفس تتناغى بضروب الذكرى من قياس الحاضر على الغابر والاسف لبغداد وسمرقند ودمشق وقرطبة والاعجاب ببرلين ولندن وباريس ونيويورك عثرتُ على شذرة صيغت بقلم احد اعضاء المجمع العلميّ الباريسيّ حثّ فيها بني قومهِ على الترغيب في اقتناء الكتب حثًّا بالغًا النيقة في البيان ملتمسًا لجامعيها الاعذار لعدم تمكنهم من قراءتها كلها ومتحسّنًا عدم تفريطهم في إعارتها ومذكّرًا برجال عندهم كانوا عرفوا بهذه المزية فقال :

لا تصح الاخلاق بمحبة الكتب شرسة البتة والطف الناس في العالم عندنا محبوها . وهل

اجمل في حسن الاحدوثة من ايداع الاسفار في خزانة كما يفعلون . وان ضنهم هذا ليذكّر بما يتمنّى بهِ الاولاد من ركم الرمل على شاطئ البحر واشتغالهم عبثًا لما ان ما يركمونهُ من الرمال ينهال للحال و يُمحَى اثرهُ . وهذا شأن مجامع الكتب والصور فكما ان البحر يودي بكوم الرمل يشتّت الدلال تلك الكتب المجمّعة اذ يبيعها جملةً وافرادًا واللوم في ذلك على صروف الدهر وقصر العمر . غير انهُ ما من شيء ازين في العاقبة من جمع الرمل في السنة السادسة والكتب في الستين . وهيهات ان يبقى شيء مما نعملهُ ونجدُّ فيهِ الآن . اذًا فالرغبة في ابتياع الخسار ليست دون الرغبة في غيرهِ

يعيش عشاق الاسفار ممتعين بصيت حميد واثر مجيد قائمين بما يفرضهُ العالم عليهم . فقد تجد نفوسًا مائلة الى الكتب بكليتها وما الدنيا عند اهلها الاَّ كناية عن حبر وورق . ومن يحيا بمثل هذه الروح يقضي حياتهُ امام منضدة عملهِ ولا همَّ يعروهُ من جرَّاء الحقائق المثابر على دراستها الملازم لاستبطان سرّ ما خط فيها واستنباط غور ما استخرج منها . ومثلهُ لا يعرف من جمال ربّات الحجال الاَّ ما سطر في كتبهِ ولا يدري من المحن واعمال الرجال وآمالهم سوى ما يستطاع ان يحصر في حبك الكتب ويسمَّى في تضاعيف جلودها فهو بهذا على الجملة مضادّ للطبيعة الاَّ انهُ بريء لا ذنب لهُ

ثم قال لنبارك الكتب اذا امكن قضاء الحياة وسطها في شبيبة رابية راضية . وإنَّ من الناس من عرفتُهم فما اغنتهم القراءة والكتابة تبصرة ولا سكينة . فان كانت الاسفار تحمل السلم الى المسالمين فيها تضطرب النفوس المهوّسة المهوّشة . ما الكتاب الاَّ عبارة عن عمل من السحر يصدر منهُ صنوف من تشويش البال وتبدّل الضمائر . ما الكتاب الاَّ آلة سحرية صغيرة تقتادنا الى وسط نرى فيهِ صورًا ماضية ونشرف منهُ على ظلال خيالية . وما أشبهُ المستكثرين من تصفح الصحائف الاَّ بالمدمنين تناول الحشيش من كونهم يعيشون في حُلم فما ينفذ الى تلافيف رؤوسهم من سمّها الساري يُفقدهم الحسَّ بما في العالم الحقيقيّ ويجعلهم عرضة لاوهام مفزعة او مفرحة وما الكتاب الاَّ افيون الغرب وما نحن بهِ الاَّ هالكون

هي الكتب حتى تكلّفَ بها لانها تُكلّفُنا يسيرًا ونعشقها فنرى فيها خطرًا خطيرًا ، قلت انها تهلكنا وهو كلام رجل شغفتهُ حبًّا فانكبَّ على التملي بها لا يراقب الرقباء ولا يرهب العواذل وذلك لان لدينا منها العدد الكثير والانواع المنوّعة . ولئن كنا بها نموت فيها نحيا وطا علينا الايادي البيضاء . الكتاب يُشبهُ اللسان من حيث يمكن أن يقال عنهُ انهُ احسن الاشياء واقبحها على انهُ حسنة الحياة المدنية مفتاح العلم لسان حال الحقيقة والعقل بهِ يعلم

المرء ويمشي من التحقيق على سواء الطريق ويقضي اول الفروض المتحتم عليهِ اداؤها من تسبيح الآلهة . ويصحُّ ان يُنعت بانهُ اثمٌ كل نزاع ومنبعث كل شقاق . فان قيل فيهِ لسان حال الحقيقة فيقال ايضاً والضلالة . وان شئتَ زيادةً في قبحهِ فقل بلا اثم ولا حرج انهُ صوت البهتان بهِ تُدَمَّرُ البلدان وتَرْذُل نفس الانسان . وان كان من وجهٍ يسبح الآلهة فمن آخر يجدِّف ويَطْعُن في قدرتهم . وانا اقول نامحاً لمن سئمت ابصارهم النظر الى كثير من الاوراق المسوَّدة ان لا تعشقوا الكتب ولا تصحبوها كيفما اتفق بل تلطفوا في الانتخاب واجملوا في الطلب

هذا مقال العالم الافرنسي وهو كلام تسوغ تلاوتهُ على رؤوس كل جيل وقبيل وان كان كثيرون في هذه الديار اسمى من ان يُنصحوا بمثلهِ لانهم لا يحفلون الاَّ بما كان موضوعهُ الزهد والحماسة والمجون يقبلون كتبها على علاَّتها ويردون مواردها على كدورانها . وليس الاستكثار من جمع نافعها بموجود الاَّ في مقصورات افراد بيننا يُعدُّون على الاصابع أُولعوا حديثاً بجمعها كما يجمع الغلاة في محبة الطوابع مجاميعهم او يزين الغنيُّ قصرهُ بالعاديات على حين ان المثقفين من موسري الاوربيين يغالون باقامة المتاحف في قصورهم او خزائن الكتب الثمينة في نواديهم فينفعون وينتفعون

ولقد قرأت منذ عهد ليس ببعيد وصف مكتبةٍ لاحد اغنياء بروكسل عاصمة البلجيك يدعى لوفانجول (Lovengoul) وهو رجل خطبتهُ المناصب في مبدإ امرهِ لغناهُ وغنائهِ فتجافى عن ان يكون سفيراً او وزيراً او اميراً او شيراً ورأى منذ اربعين سنة ان سعادتهُ في الاعتلاء عن تطلُّب الدنايا الى النهوض بهذه الاعباء وعلم ان جمع الكتب اجل صناعة يصرف عليها نهارهُ وليلهُ فاشتدَّ ولوعهُ خاصةً بتآليف كُتبت بخط مُصنفيها او وشحت على الاقل بتواقيعهم فطاف من اجل ذلك المعالم والمجاهل يطلب وُرَيقة سوَّدتها انامل عالم او كتابًا معتقًا اكل الدهر عليهِ وشرب فاشتهر في الغرب امرهُ وصار غنيًّا بمالهِ غنيًّا بكتبهِ غنيًّا بعلمهِ غنيًّا بانصراف الوجوه اليهِ توقعاً للنفع من اسفارهِ

بوصف هذا الرجل واقرانهِ في الغرب من الاغنياء العلماء ممن لم تعرف قصورهم المنجدة غير الادب تقام سوقهُ والفضل تُنفق بضاعتهُ يندفع الشكُّ فيما رُوي عن الصاحب بن عبَّاد من علماء القرن الرابع واحد وزراء بني بُوَيْه وقد احتجَّ بان كتبهُ يحتاج الى اربعمائة جمل لتحمل الى ملك ارادهُ على المجيء اليهِ

وبعدُ فانا سكان العالم القديم نحاول التشبه بالمتمدنين ونعمَّا الفعل فعلنا لولا اننا نكتفي

بالقشور من حضارتهم وهم يتلقّفون اللُّباب من مدنية اسلافنا وهل قد تعلم بعضنا مبادئ لغات الاجانب فقامروا يحتقرون كلّ شيء اصلهُ شرقيّ ومن ذلك ذهابهم الى الاضراب عن الكتب المخلّفة عن السلف لانها امست بزعمهم كالشرائع المنسوخة لا تصلح الاّ طعمةً للنار ووقودًا للتنانير او سدائد للبواطي والقوارير وصررًا للنقولات والعقاقير

كنتُ يومًا اقرأُ كتاب الاحكام السلطانية للماوردي المتوفى في الخمسين واربعمائة فدخل عليَّ احد المعارف ممن تخرجوا على الاوربيين ولما رأى ما انا من الاشتغال بهِ تناول الكتاب من يديَّ وتصفح اسطرًا ودفعهُ اليَّ مزريًا على علماء العرب كلامهم. فقلت لهُ يا هذا ان الحكم على الشيء فرع عن تصوّرهِ وان شرع الحكمة ليوجب ان لا نقدّس القديم لقدمهِ او نبارك الحادث لحداثتهِ ومن الخرق في الرأي ان نصدر الحكم الاّ بعد إطالة الروية واعمال الفكر معملهُ في القضية فان رابنا شيء أنظرْنا ونظرنا والاّ حكمنا فلا نقبل النقض ولا الدفاع

الماورديُّ من اساطين العلم في عصرهِ اجلَّ الاوربيون مقامهُ كغيرهِ من كبار الرجال حتى لا تكاد مكتبة في بلادهم خاصة اوعامة تخلو من بعض تآليفهِ وكتابهُ الاحكام السلطانية طبع فيما نعلم في الغرب وترجم حديثًا الى الافرنسية بقلم المستشرق الكونت اوستروروغ (Le comte Ostrorog) . وهب اننا سلّمنا معك بقلة الفائدة من امثال هذا الكتاب الذي قضت عليهِ الظروف السياسيَّة ان لا يعمل بهِ والسياسة هنا ما برحت متحكمة على العلم اما كنا نطالعهُ لنعرف تاريخ نشوء هذا الفن ونأخذ إخذ الاوربيين على الاقلّ في عنايتهم بالبحث واحتفالهم باللغات المائتة كاشتغالهم باحية وقد تقضي قوانين مدارسهم الجامعة بمدارسة دواوين قدماء شعرائهم مع ما تعاقب على لغاتهم من تغيير اوضاعها فالانكليز مثلاً ما برحوا متعلقين بحلّ ابيات شاعرهم شاكسبير الذي قام في القرن السادس عشر والناشئة منهم اليوم يغتاص عليهم فهم معانيهِ وتصوراتهِ

فان كان هذا حال الاوربيين من انصبابهم على الاخذ من شعرائهم الماضين فما الحال بنا وأصحُّ ما كُتب في لغتنا من حكمة وادب يُردُّ تاريخهُ في الغالب الى القرون الاولى للاسلام لانتشار مُطلق الفكر على ذاك العهد ورواج سلع العلم رواجها في الغرب اليوم. واني شريككَ يا صاح في الأخذ عن الاوربيين ومعاشرتهم وقراءة مصنّفاتهم والإعجاب بحضارتهم وما عهدتهم ولا حوادة في الحق ولا إدهان الاّ متفانين في إنضاء العزائم طلبًا للكتب المشرقية من اعطاف البلاد فلمَ كل هذه العناية يصرفونها ولمَ كل هذا الجدّ في عقد المجامع والمنتديات وانشاء المدارس وبذل النفائس لو كان جميع ما الفهُ العرب ناقص الجهاز تخثّ الخلقة

وبديهي ان كل علم او كتاب مهما بلغ من التنقيح لا يبرأ من اشياء تستدرك على واضعهِ ومع وقوع الاجادة في اغلب مصنفات كبار الفلاسفة باوربا لعهدنا ما خلوا من انتقاد وتنديد. وهل خرج البشر قط عما في طاقتهم فعملوا عملاً لا يحتمل الغلط والتغليط ولا يفترق الناس فيهِ بين مستحسن ومستهجن . هذا سبنسر (Spencer) شيخ فلاسفة العمران في عصرنا على علوّ كعبهِ في الحكمة ما نجا من نقد تآليفهِ وتسنيهِ رأيهِ في كثير من مبادئهِ فهل قدح ذلك في قدرهِ وعُد غميزة عليهِ . ومن ينكر ارتقاء العلوم بكثرة الاشتغال بها وان واضعها بادىء بدء يضع قواعد طفيفة قد تكون مغلّطة ثم يخلّ نطاقها ويتحسن خَلقها وخُلقها . وضع آدم سمث فن الاقتصاد السياسي في القرن الماضي فتعاقبهُ العلماء يمحون ويثبتون .ووضع ابن خلدون علم العمران في القرن الثامن للهجرة فقفا العلماء اثرهُ يزيدون وينقلون . وهكذا قل عن الفنون التي وضعت في القرون المتأخرة ولا عهد بها للعرب ولا للروم ولا للفرس ولا للهنود ولا للصينيين فان العقل الانساني لا حدّ لهُ في الارتقاء

اليك زبدةَ ما دار بيني وبين من ارتأى ان يُضرَب بكتب العرب عرض الحائط ولو سمع منهُ عالم اوربي هذا التصريح لأضرب عن اجابتهِ لعلمهِ بان الخوض في مبحث نقرر من الحديث المفروغ عنهُ ولو طالع ما كتبهُ المنصفون من الفرنجة على مدنية قومهِ وحسن بلائهم في خدمة العمران واستعمل قواهُ العقلية وحكّم ضميرهُ لاعتدل مشربهُ ولحدثتهُ نفسهُ بان خُذْ ما صفا ودَعْ ما كَدَر . ولولا ما عمم القول لالتمست لهُ عذرًا لكثرة ما في الايدي من كتب لو اعتيض عنها بما خلفهُ المحققون من الآثار لما انحطت المدارك الى هذه الدركات

وانهُ ليقلّ للاوربيين كل تحميدٍ وتحبيذ فانهم مع ما بلغ اليهِ العلم عندهم من الجلاء ما يرح عقلاؤهم متوقفين في كثير من مسائلهِ ربما يعثرون على ما فقد من الكتب القديمة فقد حسبوا حسابهم فرأوا ان ما لديهم من الكتب العربية مطبوعة كانت او مخطوطة لا تكاد تبلغ ثلث ما ذكر في تراجم المشاهير من المصنفات . حتى ان علم الفلك على ما يعلم الجمهور من ارتقائهِ اليوم بما تهيأ لهُ من الادوات المخترعة الحديثة لم يخلُ من محارات للافهام فقد زعم فريق ان العرب على قلة معرفتهم بالتصوير وعدم الادوات الكافية لم يكونوا دون اهل هذا العصر فيهِ . وكذلك قل عن التاريخ فقد صرّح احد علماء الغرب بانهُ لم يتحرر عندهم بعدُ الى الغاية التي انتهى اليها وقت ازدهاء العلم في مشرقنا

وكيفما كان الحال فانا نرى الفرنجة محتفظين بتركة اسلافنا منذ دبّت في نفوسهم روح التقدم . واكد بعضهم ان ما يطبع من كتب المشارقة في اوربا كل عام يبلغ نحو الف كتاب

فلو فرضنا ان ما تفضلوا بنشرهِ منذ بدء النهضة هو ربع هذا العدد او ثمنهُ كلَّ سنة فكم تبلغ كتبنا المطبوعة عندهم يا تُرى . ومما يُخجل ان احد الاصدقاء اوعز اليَّ منذ مدة ان اكتب نبذة في عمران دمشق فطفقت اتصفح اقوال المتعرضين لذلك من المؤرخين والجغرافيين فلم اظفر من الاسفار المتداولة بطائل ولا نائل ولولا كتب جمة في هذين الفنين طبعت في اوربا بالعربية لخرجت الرسالة بتراء جذماء بالمرَّة لان ما يتعلق بهذه الحاضرة من الآثار قلَّ ان تجد لهُ فيها ذكرًا فقد ألف الحافظ الذهبيُّ الدمشقيُّ من علماء القرن الثامن مثلاً عشرات من المجلدات في التاريخ ومن الاسف انك لا تكاد تجد في هذه البلاد ورقة واحدة منها

ولاغاضة اذا نودي عقيب ما تقدم انَّ بعيدًا يحسن القيام على هذا التراث الوافر لاحرى بهِ من قريب يبذّ دهُ جزافًا وان اقوامًا كالغربيين عرفوا الحق فقال احدهم ان بعض علماء العرب وضعوا من صنوف المصنفات ما لا يستطيع احدنا ان يقرأهُ كل عمرهِ لجديرون بارث الشرق في مادياتهِ وادبياتهِ وان الانكليز ليعذرون على قانونهم الذي لا يورث الاَّ بكر الاولاد تفاديًا من ان لا يثمر المال في ايدي غير الاكفاء . وخليق بالعاقل والحكمة ضالتهُ ان لا يلم ايضًا بان حسنات بغداد بمأمونها فوق حسنات اثينا ببركليسها وروما باغسطسها الاَّ بعد تمييز الزيوف من النقد العزيز والمفاضلة بين مناجم الفحم ومكاز الابريز

محمد كرد علي

تربية الاولاد

من كتاب تدبير الاطفال في الصحة والمرض لمؤلفهِ الدكتور اسكندر بك جريديني

التربية علم واسع الاطراف نذكر من اساليبهِ وكيفياتهِ ما يسمح بهِ غرض الكتاب وقد قسمنا الكلام عليها الى قسمين

اولاً : التربية البدنية . وثانيًا : التربية الذهنية والادبية

فالتربية البدنية او الرياضة الجسدية تقوم بتحريك عضلات الجسم والتنزه في الجنائن البعيدة عن مجامع الناس واقذار المدن . ولا بد للولد من تربية بدنهِ وهذا فرض واجب على الوالدين لان نجاح كل امة موقوف على افرادها والافراد بصحة ابدانهم وشدة بأسهم وجلدهم . ومن كان مسقامًا مراضًا قصر عن القيام بواجباتهِ نحو وطنهِ ونفسهِ وكان حملاً ثقيلاً على أهلهِ ووقرًا على عاتق الانسانية

وتبتدئ التربية البدنية من الاسبوع الثاني من الولادة وهو الزمن الذي يشرع فيهِ